... قد طلعتْ شمسُ الغد

• أحمد سليماني*

٠١٠

طلعت الشمس أمس...

مقلقةً شمسُ ذاك الصباح، تُحْرِق الأجسادَ وتَبْهر العيونَ...

ـ قُمْ يا زوجَ النحس؛ لقد تعفَّنتَ نومًا.

ـ .....

لا يجيبها لأنَّه يعرف أنَّه حقًّا زوجُ نحسٍ، مثلما هي زوجةُ نحس.

يتعرَّق جسدُه، فلا يجد بدًّا من القيام للتهوئة فقط.. رغم أنّ الهواء نادر هذه الأيام. يَفْرك عينَيْه.. يراوحهما بين الفتح والغلق مرات عديدة كي تَعْتادا هذا الضوءَ الباهر، ثم يبادر إلى التقاط سيجارة من العلبة النائمة تحت الفراش. يُشْعل عودَ الكبريت ثم السيجارةَ من بعده. لا يُطفئ عود الثقاب.. يظلّ يتأمَّله باهتمام وهو يحترق رويدًا رويدًا، تاركًا خلف النار عودًا أسود فاحمًا يعلوه رأسٌ محترق. يرنو بلا عَيْنَيْنِ إلى فوق. يظلّ يراقب هذه العملية حتى تصل النارُ إلى إصبعيه فتَلْتَذِعان. ينفخ بشدّة على العود نفخةً تطيِّر بعضَ نومه. يلتفت إلى السيجارة في يده الأخرى وقد راح أكثرُها خارج صدره؛ يُحزنه تَلَفُ الأشياء في غير مجالها: السيجارةُ في غير صدره، ليلةٌ خارج الحمّى، يومٌ بلا خمر، مطرٌ في المدينة، شبابٌ في سجن الفقر.

يستلقي على الفراش من جديد. السيجارة في يده اليمنى. يده اليسرى تحت رأسه. وهو ينظر إلى السقف يبحث في كلّ ركن من أركانه عن شيء يجلب بصره.. أيِّ شيءٍ هذا الصباح.

ذبابة على المصباح المنطفئ (لو اشتعل لطارتْ).. وقد تحطّ عليه هو فتقلقه. بسرعةٍ استنتَجَ أنّ اختفاء الذباب ليلاً سبَبُهُ النورُ الكهربائيّ.. ثمّ تساءل عن مدى صحّة استنتاجه هذا.

كل شيء يمرّ بهدوء.. أو لا يمرّ. الذبابة هاجعة فوق المصباح. الشمس لا تتحرّك. الباب لم يُغْلقْه أحدٌ ولم يفتحْه أحد. محرّك الثلاّجة يقوم بواجبه من الإفطار من أعصابه دون ملل. كلبُه كفّ عن النباح.. التلفاز بدأ بالقرآن. زوجته تتأفَّف من نفسها.

ـ أمْ.. تدخَّن على الخواء. أنا لستُ خائفةً عليك، إنَّما أخاف أن تتركنا أيتامًا.

ـ .....

في ركن من الأركان عنكبوتٌ بدأ ينسج بيته ـ ﴿وإنّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العنكبوت﴾ ـ يَنْسجه على مهل وبدون أدنى مجهود. وهو يشارك البقيةَ الجلوسَ إلى مائدة أعصابه.

ـ ألن تُفْطر هذا الصباح، وتتحرّكَ قليلاً؟ لقد مَلَّكَ الفراشُ.

ـ .....

رشة واحدة، وسقطت الذبابةُ مترنِّحةً.

مَسْحَةٌ واحدة بالمكنسة، وغاب بيتُ العنكبوت.

أَسِفَ لهذَيْن المخلوقين الضعيفين.. ثم تساءل: لماذا خُلقا ضعيفين؟ وهل هما ضعيفان حقًّا؟

---

*ـ كاتب تونسيّ شابّ. فازت قصتُه هذه، التي تُنْشَرُ للمرّة الأولى، بجائزة القصة القصيرة في أكبر مسابقة أدبيّة شبابيّة في قليبية صيفَ ١٩٩٨.

ـ يا امرأة، لا بدّ أن أعود إلى النوم. إنّه وقت القيلولة الآن.. وأنا مُتْعَبٌ. فاخرُجي وأَغْلقي وراءكِ الباب بهدوء.

ـ ما الذي أتعبَك؟

ـ .....

سحبت البابَ وراءها بكلّ قوّتها (آه لو سحبته هو..)

ـ اللّعنة على .....

يطير النومُ من عينَيْه. ينظر في الساعة: الحادية عشرة وبعض دقائق. ماذا يفعل الآن والغرفةُ مغلقةٌ والرأسُ ثقيل؟ يتذكّرها ببطء (دائمًا تَعُوده). يشعل سيجارةً.. يدخّنها بلا تلذُّذ. ثم.. ينام.. أو يخيَّل إليه ذلك.

عقارب الساعة تزحف رويدًا رويدًا.. على بطنها نحو الرابعة بعد الزوال. لا بدّ أنّ الطقس قد تبدّل في الخارج.

يَفْتح البابَ. يستنشق الهواءَ ملءَ رئتيه. يتّجه إلى بيت الحمّام. يَغْسل أطرافَه. ينظر في ذقنه (سيحلقها غدًا). يعود. يلبس أول ثوب يقع بين يديه. يخرج من جديد. يُمْسك بالدرّاجة الراسية جنب الجدار. يَرْكبها. يَضْرب الدوّاستيْن عدّة ضربات. يكفّ عن الضرب. تنزل الدراجةُ الطريقَ الهابطة بسرعة، دُون مجهود يُذْكر. تنزل مسافة حوالى مائتيْ متر. ثم تبدأ الطريق في الإرمال والصعود، وتَصْعب سياقةُ الدراجة. ينزل. ينظر إلى الطريق الصاعدة أمامه. يفكّر في العلوات والرمال التي ستعترضه في الطريق إلى القرية. يفكّر في الناس الذين لم يروه منذ مدّة.. ماذا سيجيب لو سألوه أين كان؟ تعب منتظر.. وإحراج منتظر.. وكذب منتظر.. وقلق منتظر.

يَعْدل عن فكرة الذهاب إلى القرية. يعود جارّاً الدرّاجةَ. وعندما يصل يصيح بأخيه:

ـ يا ولد، رحْ إلى السوق واشترِ لي علبةَ دخان.

ـ ورغيفَ خبز (تضيف زوجته).

ـ ورغيفَ خبز (يضيف هو).

يَدْخل غرفتَه من جديد. يَنْزع أدباشَه.. و.. يعود إلى الفراش يَطْبخ جسدَه المنهكَ في النوم.

٢٠.

طلعت الشمس أمس...

مقلقةٌ شمسُ ذاك الصباح، تُحْرِق الأجسادَ وتَبْهر العيونَ...

ـ قُمْ يا زوجَ النحس؛ لقد تعفّنتَ نومًا.

ـ .....

لا يجيبها لأنّه يعرف أنّه حقّاً زوجُ نحسٍ، مثلما هي زوجةُ نحس.

يتعرّق جسدُه، فلا يجد بدّاً من القيام للتهوئة فقط.. رغم أنّ الهواء نادر هذه الأيام. يَفْرك عينَيْه.. يراوحهما بين الفتح والغلق مرات عديدة كي تَعْتادا هذا الضوء الباهر، ثم يبادر إلى التقاط سيجارة من العلبة النائمة تحت الفراش. يُشْعل عودَ الكبريت ثم السيجارةَ من بعده. لا يُطفئ عود الثقاب.. يظلّ يتأمّله باهتمام وهو يحترق رويدًا رويدًا، تاركًا خلف النار عودًا أسود فاحمًا يعلوه رأسٌ محترق. يرنو بلا عَيْنَيْنِ إلى فوق.

• أحمد سليماني

يظلّ يراقب هذه العملية حتى تصل النارُ إلى إصبعيه فتَلْتَذِعان. ينفخ بشدّة على العود نفخةً تطيِّر بعضَ نومه. يلتفت إلى السيجارة في يده الأخرى وقد راح أكثرُها خارج صدره؛ يُحزنه تَلَفُ الأشياء في غير مجالها: السيجارةُ في غير صدره، ليلةٌ خارج الحمّى، يومٌ بلا خمر، مطرٌ في المدينة، شبابٌ في سجن الفقر.

يستلقي على الفراش من جديد. السيجارة في يده اليمنى. يده اليسرى تحت رأسه. وهو ينظر إلى السقف يبحث في كلّ ركن من أركانه عن شيء يجلب بصره.. أيِّ شيءٍ هذا الصباح.

ذبابة على المصباح المنطفئ (لو اشتعل لطارتْ).. وقد تحطّ عليه هو فتقلقه. بسرعةٍ استنتَجَ أنّ اختفاء الذباب ليلاً سبَبُهُ النورُ الكهربائيّ.. ثمّ تساءل عن مدى صحّة استنتاجه هذا.

كل شيء يمرّ بهدوء.. أو لا يمرّ. الذبابة هاجعة فوق المصباح. الشمس لا تتحرّك. الباب لم يُغْلقْه أحدٌ ولم يفتحْه أحد. محرّك الثلاّجة يقوم بواجبه من الإفطار من أعصابه دون ملل. كلبُه كفّ عن النباح. التلفاز بدأ بالقرآن. زوجته تتأفّف من نفسها.

ـ أمْ.. تدخّن على الخواء. أنا لستُ خائفةً عليك، إنّما أخاف أن تتركنا أيتامًا.

ـ .....

في ركن من الأركان عنكبوتٌ بدأ ينسج بيته ـ ﴿وإنّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العنكبوت﴾ ـ يَنْسجه على مهل وبدون أدنى مجهود. وهو يشارك البقيةَ الجلوسَ إلى مائدة أعصابه.

ـ ألن تُقْطر هذا الصباح، وتتحرّكَ قليلاً؟ لقد مَلّكَ الفراشُ.

ـ .....

رشة واحدة، وسقطت الذبابةُ مترنّحةً.

مَسْحَةٌ واحدة بالمكنسة، وغاب بيتُ العنكبوت.

أَسِفَ لهذَيْن المخلوقين الضعيفين.. ثم تساءل: لماذا خُلقا ضعيفين؟ وهل هما ضعيفان حقّاً؟

ـ يا امرأة، لا بدّ أن أعود إلى النوم. إنّه وقت القيلولة الآن.. وأنا مُتْعَبٌ. فاخرُجي وأَغْلقي وراءكِ الباب بهدوء.

ـ ما الذي أتعبَك؟

ـ .....

سحبت البابَ وراءها بكلّ قوّتها (آه لو سحبته هو..)

ـ اللّعنة على .....

يطير النومُ من عينَيْه. ينظر في الساعة: الحادية عشرة وبعض دقائق. ماذا يفعل الآن والغرفةُ مغلقةٌ والرأسُ ثقيل؟ يتذكّرها ببطء (دائمًا تَعُوده). يشعل سيجارةً.. يدخّنها بلا تلذُّذ. ثم.. ينام.. أو يخيَّل إليه ذلك.

عقارب الساعة تزحف رويدًا رويدًا.. على بطنها نحو الرابعة بعد الزوال. لا بدّ أنّ الطقس قد تبدّل في الخارج.

يَفْتح البابَ. يستنشق الهواءَ ملءَ رئتيه. يتّجه إلى بيت الحمّام. يَغْسل أطرافَه. ينظر في ذقنه (سيحلقها غدًا). يعود. يلبس أول ثوب يقع بين يديه. يخرج من جديد. يُمْسك بالدرّاجة الراسية جنب الجدار. يَرْكبها. يَضْرب الدوّاستيْن عدّة ضربات. يكفّ عن الضرب. تنزل الدراجةُ

الطريقَ الهابطة بسرعة، دُون مجهود يُذْكر. تنزل مسافة حوالى مائتيْ متر. ثم تبدأ الطريق في الإرمال والصعود، وتَصْعب سياقةُ الدراجة. ينزل. ينظر إلى الطريق الصاعدة أمامه. يفكّر في العلوات والرمال التي ستعترضه في الطريق إلى القرية. يفكّر في الناس الذين لم يروه منذ مدّة.. ماذا سيجيب لو سألوه أين كان؟ تعب منتظر.. وإحراج منتظر.. وكذب منتظر.. وقلق منتظر.

يَعْدل عن فكرة الذهاب إلى القرية. يعود جارّاً الدرّاجةَ. وعندما يصل يصيح بأخيه:

- يا ولد، رحْ إلى السوق واشترِ لي علبةَ دخان.

- ورغيفَ خبز (تضيف زوجته).

- ورغيفَ خبز (يضيف هو).

يَدْخل غرفتَه من جديد. يَنْزع أدباشَه.. و.. يعود إلى الفراش يَطْبخ جسدَه المنهكَ في النوم.

.٣٠

قد طلعتْ شمسُ الغد.....

.....

مقلقةٌ شمسُ كل صباح، تُحْرق الأجسادَ وتبهر العيونَ.....

ذبابةُ الغد قد حطَّتْ على المصباح منذ أمس.

الكلب ملَّ فصيلتَه.

هي تَعُوده أبدًا.

هواء الغد الذي سيستنشقه ليس سوى الهواء الذي أَخْرجه أمس.

الشَّعرْ الذي سيكسو ذقنَه موجودٌ قبل أن يدرك ذلك.

.....

..... فقط.

غدًا..

لن يَسْمعه أخوه..

ولن يطيعه..

سيأتي دورُه

ويُنْهكُ جسَدُه.

وسيبدأ في طبخه في النوم.

تونس